

الفصل التاسع

التربية الاجتماعية

أولاً - الصلة بين التربية والمجتمع

يهمنا أن نتساءل ما هي قيمة المجتمع في الحياة الإنسانية؟ يعتقد كل فرد أن وجود المجتمع أمر لا غنى عنه. وهو يرى في اعتقاده هذا أمراً مسلماً به لا يعتوره الشك، ولكن إدراك التجارب، والفرص الاجتماعية التي تشكل الفرد تشكيلاً تاماً وتخلقه خلقاً جديداً يتطلب بذل بعض التفكير.

تؤثر البيئة الاجتماعية على الفرد فتخلق منه ذلك الشخص الذي نعرفه بمحصاله وصفاته، فقد كان الرجل البدائي يعيش في مجتمع صغير محدود وكانت العادات القبلية تسيطر عليه وتشكله كما كانت حياته سلسلة من الإذعان والحرمان. غير أن بعض مظاهر سلوكه وبعض عاداته التي كان يعتقد بصحتها وأنها أمر طبيعي لا غبار عليه، تبدو الآن شيئاً نائياً. بل وضرباً من الوحشية، فقد كان مثلاً يكره الغرباء ويغدر بهم كما كان يفتك بالضعاف والمعجزة، وكانت عقائده وآراؤه عن طبيعة العالم الذي يعيش فيه آراء سقيمة وسخيفة لا تستحق أن يلتفت إليها لأنها آراء فجة. بدائية تتكون في جملتها من أساطير صوفية أو خرافات وهمية، غير أنه اتخذ منها وسيلة لتبرير نظم الحياة القبلية تبريراً منطقياً، ولو عاش هذا المخلوق الذي يمت إلينا بصلة قوية من الناحية البيولوجية، والذي هو ثمرة اجتماعية محدودة، لو عاش بين ظهرانينا ولمس حضارتنا واندمج فيها فإننا ندهش كثيراً حين نلاحظ الهوة العميقة التي تفصلنا عنه، وحين ندرك مقدار تأثير البيئة في صبغنا بالصبغة التي نحن عليها الآن، وفي صقلنا، وتكويننا ككائنات تتمتع بهذه الحضارة. بيد أننا نجد هذا بصورة أصغر، وأقل وضوحاً

في جميع الأشياء المحيطة بنا ؛ فالبيئة الاجتماعية في القرية خلقت تلك الشخصية المعروفة عن الفلاح وطبعته بذلك الطابع المميز له ، كما أنجبت الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا جيلا له صفات ثابتة متميزة لا يمكن أن نخطئها في الشخصية أو في النظرة إلى الحياة ، وصفوة القول : أن كل جماعة مستقرة لها في محيطها الاجتماعي الذي تعيش فيه « خصال مميزة وصفات ثابتة » ، ولذلك لو استطعنا أن نجتمع بين أحد سكان « جزيرة سليمان » ، وأحد الأرستقراطيين الإنجليز . وتاجر من تجار « نيويورك » ، وبدوي من القبائل العربية ، وفلاح من فلاحي جنوب أفريقيا في صعيد واحد فإننا ورغم الصفات المشتركة بينهم كالخصائص البيولوجية التي ورثها الإنسان في كيانه ، والقدرة الفطرية – نجد أننا نتعامل مع ضروب من الكائنات الحية البشرية المتباينة أشد التباين ، المختلفة كل الاختلاف إلى حد أنه يتعذر على أحدهم فهم الآخر ، أو أن نكون منهم مجتمعا حقيقيا يسوده التفاهم المتبادل ، فهذه الاختلافات هي نتيجة لاختلاف الوسط الاجتماعي وتباين التجارب التي مر بها كل .

(١) قيمة المجتمع في الحياة الإنسانية :

ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه يستحيل وجود الشخصية الإنسانية « بدون المجتمع » . فلن يستطيع شخص أن يعيش بمعزل عن المجتمع . وإذا هام إنسان على وجهه في بيداء واسعة دون أن يعتمد على مساعدات من مجتمعه ، فإنه لا بد وأن يقضى عليه سريعا لأنه لن يجيا عاريا ، أو جائعا أو أعزل ، أو شريداً فحسب ، بل إنه سيفتقر أيضاً إلى كل الصفات الذهنية ، وكل أنواع المعرفة والمهارة البشرية ؛ التي يكتسبها الإنسان من وجوده في المجتمع . وإذا أمكن لإنسان أن ينشأ بأقل مساعدة ممكنة من الآخرين لنموه ، فإنه حين يبلغ العشرين يصير إنساناً في الشكل والحلقة فحسب ، دون أن تكون له صفات الإنسان العقلية . وهكذا تجده عاجراً عن الكلام ، محتاجاً إلى العقائد ، والآراء التي تنظم وتوجه حياته العقلية ، مفتقراً إلى القدرة

على استخدام أبسط ، وأعم الأدوات ، وأكثرها ضرورة في الحياة ومفتقراً إلى تلك الخصال ، والعادات التي تربطه بأداب اللياقة ، وخلاصة القول : إذا استطعنا حرمان فرد من كل الصفات التي يكتسبها من المجتمع فإنه يصير عبارة عن بضعة أرتال من تلك المادة الحية المعروفة « بالبروتوبلازما » ، ويصير مثلها ضعيفاً ، عاجزاً عن وضع الطعام في فمه ، وتقتصر أحسن أفعاله على سلسلة من الأفعال المنعكسة من بلع وهضم وإخراج .

ونستطيع أن نعبر عن هذه الحالة في عبارة أخرى فنقول : إن التكيف البشري يجب أن يتفق مع البيئة الاجتماعية ومع ما تتطلبه من مطالب واحتمالات اجتماعية . وهذا القول صحيح حتى في الأمور التي نبدو فيها مستجيبين لأسور مادية بحتة ، فأنا حين أجلس على مقعد ، لا أستجيب لأمر مادي يدعو بطبيعته وفي حد ذاته إلى الجلوس ، وإنما أفعل شيئاً يتفق مع نظم المجتمع الذي أعيش فيه ، تلك النظم التي تتطلب من بين ما تتطلبه من المرء الجلوس على المقاعد ، ولكن لو نشأ إنسان في بيئة لا تعرف المقاعد فإنه حين يرى مقعداً لا يملك سوى أن يحدق فيه ببلاهة . وإذا كانت الأساطير السائدة في قبيلته قد علمته بأن الشيطان فحسب هو الذي يجلس على المقعد فإنه سيفزع مضيفه بالابتعاد عنه في خوف ورهبة ، أو قد يندفع ليحطم هذه الأداة العينة . فتكيف المرء لا يكون بالنسبة إلى الشيء في حد ذاته ، وإنما للشيء كجزء من نظام المجتمع . وعلى هذا المنوال يمكن القول : بأن الفلاح زمن الحصاد ، وعامل المنجم حين يعثر على الفحم ظاهراً لا يستجيبان للحقائق المادية المباشرة الموجودة أمامهما فحسب بل إن سلوكهما هو ملاءمة لمجموعة معقدة من الأزمات الاجتماعية ، والمطالب الاقتصادية المختلفة .

وبذلك نكون قد انتقلنا خطوة أبعد من الفكرة السابقة ، فليست التربية عملية تكيف فحسب ، وإنما عملية تكيف اجتماعي ، وليست تشكيلاً للحياة فقط ، بل تشكيلاً للحياة الاجتماعية التي نحياها ، ويقررها ويسنها المجتمع . ولما كان للمجتمع مطالب فإن التربية تهيب الفرد للملاءمة مع هذه المطالب .

وفي تحقيقها لهذه الملاءمة تخاق الإنسان في صورته الحالية .
ولكن كيف يضع المجتمع أهداف التربية ؟ ويرى الأستاذ « مرسل »
Mursell « (١) .
« أن مؤسسات المجتمع هي التي تحدد أهداف التربية » .

The Institutions of Society set the goals of Education

وإذا بدت هذه العبارة في بادئ أمرها غريبة الوقع في نفوسنا ، مثيرة للدهشة في صحتها ، فلأننا نستعملها استعمالاً محدوداً ضيقاً . فأول ما ترسمه هذه العبارة في أذهاننا هو صورة للبناء ، والتشييد من أحجار ، ثم تجعلنا نرى في السجن مؤسسة أو نوعاً لهذا البناء ، وفي المدرسة نوعاً ثانياً ، وفي ملجأ الأطفال والعجزة نوعاً ثالثاً ، وفي المستشفى نوعاً آخر . على أن القليل من التفكير يبين لنا تفاهة وسطحية هذه النظرية . لأن السجن في جوهره ليس جدراناً ، وأحجاراً ، وإنما هو « نمط معين » من الحياة ، والعمل ، كما أن المدرسة ليست نموذجاً لفن البناء ، وإنما هي مجتمع لرواد العلم من طلبة ، وأساتذة يلتقون فيها ليحققوا هدفاً واحداً مشتركاً بطريقة معينة ، فقد تمر بمستشفى فمخ لا تجد في مظهره ما يوحي إليك بأنه مستشفى على الإطلاق . كما أنك قد تمر ببناء شاهق أنيق في مظهره حقير في حقيقة أمره، وعلى هذا الأساس تكون المؤسسة institution طريقة مشروعة أو عادة معروفة دائماً للعمل والحياة معاً — ولقد ذكر رجال الاجتماع أن الفرق بين المؤسسة وبين العادة هو فرق في الدرجة فحسب . فالعادة هي أن يلبي المرء نداء مجتمعه كأن يرتدى زياً خاصاً في حفل معين، أو أن يعث بطاقات الدعوة في حفلات الأفراح . غير أن الحياة المدرسية وما تتضمنه من سلوك الطالب ، والمدرس ، والحياة المنظمة في المصنع أو المصلحة ، وكتلة النشاط الإنساني التي تكون في مجموعها ما نسميه بالدولة الديمقراطية كل هذا يسمى عادات أيضاً وإن كانت على نطاق أوسع وفي معنى أكثر تعقداً ورسوخاً ، ولكن يجب على الفرد أن يتعلم كيف يلائم نفسه مع العادات في

معناها الواسع والضيق ، فجل ما يحتاج إليه الفرد في المثال الأول أو في العادات بمعناها الضيق . هو كتاب عن آداب اللياقة وبعض التهذيب ، أما في العادات بمعناها الواسع فحسبه « برنامج تربوي » موضوع بحكمة وصبر ليحقق له هذه الملاءمة . وتتكون المؤسسات الاجتماعية العريقة التأسيس وطرقنا العادية في أداء الأعمال من المطالب التي تفرضها البيئة البشرية على الإنسان . وبهذا المعنى تكون المؤسسات الاجتماعية أهدافاً للتربية .

ولما كان لهذه الفكرة مغزى عظيم ، وما دمننا سنجعلها محوراً وأساساً لتفكيرنا ، فإننا نود إيضاحها بقدر الإمكان ، ولذلك فلنفرض أن أحد سكان وسط أفريقيا هاجر إلى مصر ، فإن الرغبة ستدفعنا إلى أن نخلق منه مصرياً آخر ، وبعبارة أخرى سنبدل جهداً لنجعله يتكيف مع المؤسسات الاجتماعية في مصر ، وهو حين يهبط القاهرة سيجد نفسه غريباً كما لو كان كائناً بدائياً تائماً في معمل مملوء بالآلات الضخمة الدقيقة . فلو لم يجد أحداً يعينه ويرشده فسيقف أمامها مذهولاً خاشعاً أو يؤدي نفسه ويفسد هذه الآلات بمحاولة استعمالها . ولكنه يستطيع رويداً رويداً أن يندمج في هذه الحياة الاجتماعية المعقدة . وإذا حالفه الحظ وتمكن من التكيف مع أساليب حياتنا الاجتماعية فلن يلبث أن يشعر بصلة روحية تربطه بهذه البقعة الجديدة - وإن نبى عن اتخاذها وطناً ثانياً - والطفل يشبه ذلك من عدة نواح . ولذلك فإن القول السائد في « أستراليا » هو أن الطفل أفضل المهاجرين على الإطلاق قول صادق لأنه حين يولد ويرعرع في بقعة تسنح له الفرصة للتكيف تكيفاً كاملاً أكثر من أى مهاجر آخر نزع في بيئة اجتماعية مختلفة كل الاختلاف عن البيئة الاجتماعية التي استقر فيها ، وعلى أى حال فإن العمل الهائل والتحدى العظيم اللذين يفرضهما المجتمع الجديد على المهاجرين يستلزمان في جوهرهما التكيف التام مع مؤسسات هذا المجتمع .

ولكن أليس معنى هذا هو أن للتربية أهدافاً لا حصر لها ؟ الحق أن هذا القول على جانب عظيم من الصحة . فالتربية أهداف عديدة لو حاولنا تعدادها

أو حاولنا من جانب آخر وضع قائمة بكل مؤسسات المجتمع فلن ننسى من ذلك . وعلى كل فإذا أخفق إنسان في التكيف مع إحدى هذه المؤسسات فإنخفاقه يرجع إلى تربيته الخففة . وتقدير قيمة أو مدى هذا الإخفاق يكون بمقدار قيمة أو أهمية هذه المؤسسة الاجتماعية التي فشل في التكيف معها ، وقد ضرب أحد أساتذة علم الأخلاق الاجتماعي مثلاً لذلك بأحد طلبته ، وقد كانت أعماله في أيام دراسته على جانب عظيم من الدقة والمهارة ، ولكنه صار فيما بعد مغامراً شريداً في عصبية سياسية فهذا الإخفاق يعد إخفاقاً تربوياً محزناً ، وهو في الوقت نفسه إخفاق التكيف مع أهم وأبرز مؤسسة في النظام الاجتماعي الحاضر ، وأعنى بها مؤسسة الحكم القائم . ولكن أغلبنا ليس مغامراً أو لصاً ولا يرغب أن يصير كذلك حتى ولو أتاحت له الفرصة . غير أنك قلما تجد فينا من هو متكيف تكيفاً تاماً مع بعض المؤسسات الاجتماعية البارزة الكبرى ومع فئة قليلة من المؤسسات الصغرى . ولذلك فإننا نعد مخفقين من الناحية التربوية بغض النظر عن الدرجات العلمية التي تحملها .

والقول بأن بعض المؤسسات أهم من غيرها سيكون مفتاحاً لحل مناقشاتنا التالية حلاً عملياً . لأنه لو أردنا بحث أفضل وأمثلة تكيف إنسانى مع جميع المؤسسات الاجتماعية social institutions لتطلب ذلك كتابة مجلد ضخيم يبلغ في ضخامته الموسوعة البريطانية ، ولتطلب معلومات إذا قورنت بها حقائق هذا الفصل لبدت هذه الأخيرة قطرة في بحر كبير . ولكن ما أود أن أفعله هو اختيار أهم وأبرز هذه المنشآت وإيضاح الصلة بينها وبين التربية كعملية تكيف وبذلك نستطيع فهم الطريقة التي تؤدي دائماً إلى تحليل تربوى صحيح ، واستنباط مدعم على أسس صحيحة - أما المؤسسات التي سنتناولها بالبحث فهي :

١ - الدولة ٢ - العائلة ٣ - النظام الاقتصادى

٤ - دور اللهو ٥ - مؤسسات الصحة الوقائية

وأما الغرض الذى سنبدأ به بحثنا فهو أن الرجل المثقف حسناً هو الذى

يكون متكيفاً تكيفاً حسناً مع جميع هذه المنشآت لأنها في الحقيقة هي الأهداف التربوية التي نحن بسبيل الحديث عنها .

* * *

والمقول بأن المنشآت الاجتماعية هي أهداف التربية ميزة كبرى ونتيجة خطيرة في الوقت نفسه . فالميزة هي أنها ترضى على بحثنا طابعاً عملياً يجعله أقرب ما يكون إلى الحياة والصدق . لأن الكلام عن التكيف الاجتماعي في عبارات مبهمه قد يكون ضاراً كما قد يكون نافعا ، ولكنه لا يمكننا بحث أى برنامج تربوي إلا ريثما نتأكد من نوع التكيف الاجتماعي الذي نقصده ، غير أننا حين نتحدث عن الدولة أو العائلة أو النظام الاقتصادي أو دور اللهو أو مؤسسات الصحة الوقائية يكون الكلام واضحاً ، وحائلاً دون الغموض أو اللبس . أما مجال الخطأ فهو الظن بأن الفرد يتكيف مع كل مؤسسة على حدة . ولكن الشخص الذي يكره اللهو لن يصبح عضواً سعيداً في عائلته ، والشخص الذي يهمل صحته من المشكوك فيه أن يصير مواطناً فعالاً مؤثراً في النظام الاقتصادي ، كما أن الشخص الذي يقنع بعمل محدود ، على وتيرة واحدة ، أو عمل يعرقل سير نموه الجسماني لن يكون مستطيعاً التكيف مع مؤسسات الصحة أو اللهو أو السياسة ، ولذلك يجب أن نذكر أن الحياة ليست مقسمة إلى أقسام محدودة منفصلة ، وإنما هي « كل كامل » لا يتجزأ - ويجب ألا ننظر أن هذا الرأي يتضمن تدريجاً على الأعمال المنزلية مرة ، وعلى ممارسة الحقوق المدنية مرة ثانية ، والإلمام بالأسس الصحية مرة ثالثة وهكذا . . . وإنما هو برنامج « كامل شامل عام » له صلات وثيقة ومنافذ عديدة بكل هذه المنشآت وبكل مشاكلها .

ولكنك قد تأخذ على هذه الفكرة ، فكرة أن أهداف التربية هي مؤسسات المجتمع أنها قد أغضت النظر لإغضاء تاماً عن حياة الفرد الداخلية ، فنتساءل : هل من الممكن أن نعد هذا المشروع التربوي مشروعاً كاملاً برغم أنه قد أسقط من حسابه التجارب الفردية الشخصية وأهمل تطورها وأثرها ؟ سؤال عميق ، وليس من اليسير ونحن في هذه المرحلة البدائية الإجابة عنه إجابة وافية مقنعة .

ولكننا نجد في الإشارة التي بينا فيها أهمية المجتمع للفرد بصيصاً لجواب مقنع .
 فقد رأينا سالفاً أن كل الصفات التي تخلق من الإنسان إنساناً صحيحاً ،
 لا يمكن أن توجد بدون المجتمع ، وعلى هذا يمكننا أن نضيف إلى هذا القول
 شيئاً بسيطاً فنقول : إنه ليس هناك تجربة فردية إنسانية أو ثقافية شخصية بمحة
 بدون المجتمع ، فأنت وأنا وجميعنا لا نحيا حياة بعضها اجتماعي وبعضها فردى .
 وليس هناك فاصل بين تجاربنا الاجتماعية وتجاربنا الفردية ؛ لأن كل تجاربنا من
 الضرب الاجتماعي ، وهي في الوقت نفسه تجارب فردية . وكلما تقدمنا في
 البحث سيتبين لنا مع زيادة في الوضوح أن اضطراد الحرية الفردية وقوتها
 وابتكارها تصل إلى أقصاها بواسطة التربية التي تظهر قيمة علاقة الفرد
 الاجتماعية ، والتي تؤدي إلى إدراك الصلة القوية بينه وبين بقية أفراد المجتمع .

والمبادئ التربوية التي تعتمد على تقسيم الحياة الإنسانية : إلى ناحية فردية
 وناحية اجتماعية مبادئ خاطئة ، وكذلك الآراء التربوية التي تعمل على خلق
 قيمة للفرد في حد ذاته ، ولل فرد بمنأى عن المجتمع . ولقد كانت هذه هي
 الأهداف التي تهدف إليها التربية . وهذا يقودنا إلى سؤالنا التالي الذي سيلقى
 ضوءاً ساطعاً على مشكلة الفرد والنواحي الاجتماعية في الحياة وفي التربية وهو :

(ب) ما هي وسائل الإبانة عن أهداف التربية ؟

إن جل الذين كتبوا عن أسس التربية قد أشاروا — وإن لم يذكرها
 صراحة — إلى أهداف التربية . ولذلك نجد في الأدب عبارات كثيرة عن أهداف
 التربية كلها متعارضة أشد التعارض . ولكن يجدر بنا الإلمام ببعض هذه
 التعاريف لأننا حين نقارنها بما ذكرناه نستطيع أن نفهم هذه الأهداف فهما تاماً .

فن بين العبارات التي ذكرت عن أهداف التربية ، والتي كان لها أعظم
 الأثر على عقول المربين ورجال التعليم في الأعوام الماضية ، تلك العبارة المعروفة
 باسم « المبادئ السبعة الأساسية في التعليم الثانوي » تلك المبادئ التي
 تنطبق أحسن ما تنطبق على المدارس الأولية والثانوية الأمريكية ، وقد وضعت

هذه المبادئ وأقرتها لجنة حكومية أطلق عليها اسم « لجنة تنظيم الدراسة الثانوية » .
وقد رأت هذه اللجنة أنه يجب أن تهدف المدارس الثانوية إلى النتائج السبع
الآتية :

- ١- أن تعمل على تقوية جسم التلميذ وتساعدته على النمو .
- ٢- أن تعمل على إنماء القدرات الأساسية فيه كالقراءة والكتابة والحساب
والكلام .
- ٣- أن تعمل على تدريبه وجعله عضواً نافعاً في أسرته .
- ٤- أن تساعد من الناحية المهنية فتجعله قادراً على كسب عيشه .
- ٥- أن تنمي فيه الشعور بالمسئولية المدنية .
- ٦- أن تساعد على استغلال وقت فراغه استغلالاً حسناً .
- ٧- أن تنمي أخلاق التلميذ تنمية عامة .

والباحث المدقق في هذه البنود السبعة يجد أنها صياغة جديدة لخلاصة
التعابير التي ذكرها الفيلسوف « هربارت سبنسر » عن أهداف التربية ،
ولكن هذا لا ينقص من قدرها ، بل إنه على النقيض يزيد من شأنها لأنها
تمثل أفضل الأفكار في حقبة من الزمن فضلاً عن أنها إلهام بزغ للعالم أول
ما بزغ سنة ١٩١٨ . ولقد أجمع رجال التربية على الإشادة بمحاسنها وذكروا
أنها تعطي صورة جميلة لما يجب أن يكون عليه الرجل المثقف ، كما أنها
تبين للمدارس ما يجب أن تحققه . وعلى العموم لا يملك المرء إلا أن يوافق
على جملتها . ولكن موافقتنا عليها ليست مطلقة من كل قيد أو تحديد .

فهما يؤخذ على هذه العبارة أنها فردية إلى حد كبير لأنها تقسم وظيفة
الحياة الإنسانية إلى وظيفة فردية خاصة وأخرى اجتماعية ، وهذا أمر لم تهدف
إليه اللجنة قط ، فقد تناولت العبارة المشكلة الصحيحة مثلاً على أنها مشكلة
فردية ، بينما تتوقف الصحة العقلية والجسمية للمرء على حسن استغلال وسائل
الراحة في المؤسسات ، وعلى نوع العمل الذي نسير عليه في المجتمع لترقية
وتأسيس هذه الصحة العقلية والجسمانية . كذلك تستلزم الصلاحية المهنية

صفة عظيمة مختلفة عن المهارة والبصيرة التي زود بهما الفرد . فهي تتطلب تكييفاً كاملاً مع المؤسسات الاقتصادية ، و « استغلال الفراغ » استغلالاً حكيماً أمر مستحسن كذلك وإن كان متعسراً . « فوق الفراغ » هو كما نعلم الوقت الذي لا يكون فيه الفرد مشغولاً بكسب عيشه ، ولكن « استغلاله استغلالاً حكيماً » لا يعنى أداء أعمال شخصية بحتة ، وإنما يعنى تكييفاً مرضياً نشطاً مع المنشآت المنزلية والمدنية وضروب اللهو . وبهذا المعنى يجب أن نحسن استغلالها من الناحية التربوية . كما أن العناية بأخلاق الشخص أمر على جانب عظيم من الأهمية . والبرنامج التربوي الذي يفشل في إبراز أهمية هذه الناحية الأخلاقية لا يمكن اعتباره برنامجاً صالحاً ، ولكن هذا لا يعنى أن الأخلاق جزء منفصل عن الحياة ، أو أن العناية بها أمر فردي لأنها هي النتيجة الطبيعية للتكيف التام مع جميع المؤسسات الاجتماعية ، بيد أن اتجاهنا إلى البحث عن أفضل الصفات المدنية ، وأحسن نموذج لعضو الأسرة إنما يقودنا إلى البحث عن المثالية الاجتماعية . هذا إلى أن اللجنة لم تذكر هذه الصفات على أنها صفات اجتماعية أو تكييف لمؤسسات معينة . وصفوة القول أن « المبادئ السبعة في التعليم الثانوي » السابق ذكرها تضع الأسس الأولية ، وترسم الرسم التخطيطي للمثالية التربوية الصحيحة ، ومع ذلك فنحن نرى أنها فشلت كبادئ تبيين الأهداف التربوية وضرورة تكييفها مع المنشآت الاجتماعية لأنها لم تصل بنا إلى نتائج محسوسة وملموسة .

ولنتقدم الآن لبحث عبارة أخرى ذات مغزى وفائدة ، وإن كانت تقل عن الأولى روعة وأهمية – أعنى بها تلك العبارة التي ذكرها « إسكندر إنجليس » عندما كان يتحدث عن أهداف التربية وحينما قال : « إن التربية يجب أن تعمل على نهضة الفرد لممارسة حقوقه المدنية في المجتمع ولتواحي النشاط الاقتصادي والمهني ، ونواحي الهواية الثقافية » .

على أن هناك اعتراضات خطيرة يمكن أن توجه إلى هذا المبدأ الذي نادى به « إسكندر إنجليس » نذكرها فيما يلي :

أولاً : هو يعتبر نواحي النشاط المدني وحدها نواحي نشاط اجتماعي . كما أنه يجعل من الثقافة والمهنة أموراً فردية متروكة للفرد وحكمته ، وهو في نفس الوقت لا يضعهما على قدم المساواة في الأهمية . وهذا عيب خطير .

ثانياً : كما يؤخذ على هذه العبارة أنها تفرق التفكير في الثقافة بالهواية والمتعة . وهذا خلق بأن يضعها في مصاف الأشياء التي يقتنيها الفرد أو يتزين بها ، وهذا القول هو أصل التطورات التربوية الخطيرة في عصرنا الحاضر ، تلك التطورات التي تميل إلى اعتبار الثقافة وسيلة للترفيه والترف أكثر منها وسيلة للحياة .

ثالثاً : زد على ذلك أنه من السخف أن نقسم الحياة الإنسانية إلى حياة تعنى بالحقوق المدنية ، وأخرى تعنى بالمهنة ، وثالثة بالهوايات كما اقترح « إسكندر إنجليس » وإذا سرنا على منواله وجرينا على نهجه فسندهب إلى تقسيم الحياة إلى استيقاظ ونوم ، وسيزعم أن وظيفة التربية هي إعدادنا لذلك . وقد يبدو هذا القول صواباً ، ولكن الباحث المدقق يرى مدى سخافته وتفكك روابطه ، لأنه يتجاهل طائفة كبيرة من الأمور الحيوية . فإذا نقول عن صلة الفرد بعائلته أو بالدولة أو بالنظام الاقتصادي أو بالصحافة الشعبية أو بالمؤسسات التي تعمل على توفير وسائل الراحة واللهو ؟ أليس للتربية صلة بها جميعاً ؟ أليس من الضروري أن نعتنى بها ؟ إن الجواب باد للعيان ولا يحتاج إلى بيان . وهنا نذكر مرة أخرى أن التقاسيم الفرعية المهمة في الحياة الإنسانية هي تلك التي لها صلة بالتكليف مع المؤسسات الاجتماعية ، والتي تبين العلاقة بين هذه المؤسسات جميعاً .

ولكن دعنا الآن ننقب عن بعض العبارات التي ذكرها القدامى من رجال التربية عند بحثهم عن أهداف التربية . فسنجد أن تلك المبادئ التي نادوا بها أبسط وأعم من ذلك المبدأ الذي سبق أن ذكرناه . بيد أن رجوعنا إلى هذه العبارات لا يمكن أن نعتبره مضیعة للوقت ما دعنا نجد الكثيرين من كبار رجال التربية يرددونها حتى اليوم . كما أنها مازالت تسيطر على التفكير التربوي والتجارب التربوية .

ولنبداً بذلك المذهب الشهير أو الهدف المعروف الذى ينادى بأن « التربية يجب أن تعمل على تنمية قوى الفرد وقدراته العقلية تنمية متناسقة ». وقد يهتز القارئ بما تتضمنه هذه العبارة من معان ، وأهداف ، والحق أنها أخرجت إلى العالم بعض نظم التعليم التى تفيض حماسة ، ونشاطاً ، ولكننا حين نفحصها فحسباً دقيقاً ، نجدها ناقصة نقصاً محزناً لأنه ما دمنا نحصر تفكيرنا فى الفرد ، وهذا ما تدعونا إليه هذه العبارة فلن تكون لدينا فكرة واضحة عما يقصد باصطلاح « قدرات متوازنة » ، ولن نستطيع أن نميزها ، ونفصلها عن تلك التى ليست بمتوازنة ، ولعل المقصود منها ألا يكون الإنسان نامياً فى ناحية واحدة فقط ، كأن يكون مشغولاً متطرفاً بالعلم أو الأدب أو الفن أو الأمور المهنية . ولكن ما مقدار الشغف الواجب أن يكون لنا فى كل ناحية ؟ وما هو معيار الحكم على أن المالى إنسان لا يزيد على القدر المطلوب ؟ هذه أسئلة ليس من اليسير الإجابة عنها . ولذلك كان من المحتمل أن تبدو الشخصية المتوازنة (فى داخلها وخارجها) أيام الإغريق نشازاً فى حياتنا الحاضرة ، ينتابها صراع داخلى من جراء ذلك . بل إن الفلاح البلغارى المتصف بالتوازن فى القدرات ليصبح فريسة لسلسلة للمصائب ، والمضايقات إذا قطن الجانب الشرقى من نيويورك . ولذلك فإن التفسير الوحيد الذى نستخلصه ، ويمكننا أن نطبقه فى أغلب الحالات هو أن نقول إن الشخصية المرنة ، هى تلك الشخصية المتكيفة تكيفاً تاماً مع فئة كبيرة من الحالات الاجتماعية وبمطالبتها ومؤسساتها وهذا يرجعنا إلى ماسبق أن أدلينا به فى بادئ الأمر من أن أهداف التربية هى تحقيق عملية ملائمة الفرد مع المؤسسات الاجتماعية .

والرأى الثانى الذى نود مناقشته هو ذلك الرأى الذى ينادى بأن التربية « توزيع للمعرفة الحقة على أفراد المجتمع » . ولكن ماذا نقول عن أنواع المهارات وماذا نقول عند النقد وتدوق الأشياء ؟ وماذا نقول عن إدراك الواجبات ، والحقوق المدنية ؟ ألا يقودنا هذا إلى الظن بأن التربية صلة بالمرء الذى يعلم وبالمعلومات التى تلقن ، وهنا يجب أن نذكر فى إيمان ويقين أنه ليس لجميع

أنواع المعرفة قيمة واحدة متساوية ، ذلك الأمر الذى يترتب عليه أن يصير اختيار أحسن ما يجب أن يعرف مسئولية تربية خطيرة . وآخر ما يوجه من النقد وأهمه هو أن المعرفة من أجل المعرفة ليس لها قيمة : لأنه يجب تحويل هذه المعرفة إلى قوة فعالة وإلا تكون غير جديرة بأن يلم بها الفرد . وهكذا تنهى إلى رفض هذا الهدف التربوى « هدف المعرفة » لأنه مفضل إلى أبعد الحدود . وهناك رأى آخر ذكر فى صيغ كثيرة مختلفة ، وإن كان يدور حول هدف واحد ، ونعنى به هدف كسب العيش ، والفكرة الواضحة البسيطة التى ينادى بها أنصار هذا المذهب هى أن أهم وظيفة للتربية إنما هى تمكين الفرد من كسب عيشه ، وهذا بطبيعة الحال يجعل الهدف من التربية واضحاً محدوداً ، لأن كسب العيش جزء من الحياة ، وليس كل الحياة . فلا نستطيع أن نعد شخصاً متكيفاً صحيحاً من الناحية البيولوجية (الحيوية) أو من الناحية الاجتماعية إذا كان على وشك أن يموت جوعاً لأنه يعوزه العثور على الطعام والملبس والمأوى . كما لا نستطيع أيضاً أن نعهده متكيفاً تكيفاً تاماً إذا كان كاملاً فى شتى نواحي الحياة الأخرى . ولا يستطيع أن يفعل شيئاً غير الحصول على كسب عيشه .

وأخيراً هناك الهدف التربوى الذى يحمل أهداف التربية فى كلمة « التهذيب » فالفكرة الأساسية لدى أنصار هذا الرأى هى أن وظيفة التربية إنما هى تدريب العقل وإنماء القوى الإنسانية عامة من ملكات وقدرات . ويكمن وراء ذلك نظرية مشهورة هى نظرية التدريب الشكلى ، وقد سبق الحديث عنها عند الكلام على المنهج . وكل ما يمكن أن نذكره هنا هو أن أنصار هذا المذهب قد ذكروا الكثير من المعلومات التى أخفق كثير من رجال الفكر الحديث فى إثبات صحتها . فالواقع أن العقل المنظم المرتب ترتيباً جيداً يعتمد ويعنى بالتكيف الاجتماعى الكامل ، غير أن هذا الهدف التهذيبى فى صيغته الأولى التى نادى بها أنصاره لا يتضمن هذه الفكرة مطلقاً .

والآن وبعد هذا العرض يجدر بنا أن نتساءل : ما هو نوع التكيف

الاجتماعى المقصود؟ عندما نقول: إن هدف التربية هو تكيف الإنسان مع المؤسسات الاجتماعية نخشى أن يفهم هذا الهدف فهماً خاطئاً كما وقع فى ذلك بعض قادة التربية، فأدى هذا إلى إنتاج جيل يتصف بالطاعة والامتثال. تلك الصفات التى ترى فيها التربية الديمقراطية حدّاً قاسياً مؤملاً لثقافة الطبقات الفقيرة، وقصرها على ما يناسب مراكزهم الاجتماعية الحقيرة، وعلى القدر الذى لا يبعث فى نفوسهم أى أمل فى إيجاد وسائل شريفة للتمتع بحياة أفضل وعيشة أرغد، ويتجلى هذا الاتجاه فى قول أحد المفتشين لناظر إحدى المدارس المهنية وقد أدخل فى منهاج الدراسة بمدرسته مادى التاريخ، واللغة الإنجليزية: إن هذه المواد إن لم تكن عديمة الجدوى فهى ضارة، وإن وظيفة المدرسة الأساسية إنما هى تدريب التلاميذ على العمل مدة تسع ساعات أمام آلة من الآلات ليكتسبوا «دولاراً ونصفاً». وبالإضافة إلى هذا ما زالت بعض المدارس الحديثة والكليات فى أمريكا تؤثر تأثيراً قوياً فى نفوس طلابها - سواء أكان ذلك عن عمد أم لم يكن - باعتناق تلك الفكرة الجامدة.

وإذا أمكننا استعادة التحليل السابق عن خصائص التكيف الإنسانى فإننا - ولا ريب - نستطيع التكهن بما سيكون عليه نقدنا: فالتكيف مع المؤسسات الاجتماعية بمعنى الامتثال عبارة عن تكيف جامد بعيد عن التكيف البشرى الذى يمكن الإنسانية من التقدم، وأتاح للإنسان أن يصير سيد المخلوقات وهذا ليس تكيفاً جامداً، بل هو يتصف بالمرونة والابتكار والتقدم، وهذا هو ما يجب أن نسعى إليه جاھدين لئيم تكيف الفرد تكيفاً صحيحاً مع المؤسسات الاجتماعية.

ولكن كيف نعبر عن هذا فى عبارة واضحة محسوسة؟

نستطيع الإجابة عن ذلك لو استعرضنا بضعة أمثلة لنترجع إلى ذلك التلميذ الذى سيظل تسع ساعات أمام الآلة، ولننظر إليه بعين صادقة فسرى أنه لو درب على هذا العمل فحسب فإن تكيفه مع المصنع كمؤسسة اجتماعية يكون تكيفاً ضيقاً جامداً بصرف النظر عن مهاراته، لأنه لا يستطيع إلا أداء هذا

الضرب من العمل الروتيني ، ولكن هب أنه يؤدي عمله بعد أن ألم إلاماً تاماً بالعلم الصناعي فإن شغفه الذي سيثيره هذا العلم في نفسه ، ونزعه الانتقادية قد يفضيان به إلى الاهتداء إلى وسائل أخرى أسرع وأسهل وأفضل في أداء عمله . وليس هذا بمستغرب ، فظالما حدث كثيراً ولو كان لهذا التلميذ إلام مستمر بالعلوم الاجتماعية ، أو بعبارة أخرى لو كان ذا بصيرة نافذة لإدراك طبيعة حياة الجماعة وكيفية الحياة فيها فقد يصبح عاملاً نشطاً فعالاً في رقي المصنع ، ولذلك فإنك ستجد في عمله مرونة وابتكاراً بدلاً من الجمود والطاعة العمياء ، فتى رغب الطفل عن الامتثال وتلك الطاعة العمياء فإنه يصبح عاملاً فعالاً .

ولنضرب مثلاً آخر من عالم التدريس : ففي القرن التاسع عشر ظهر نظام مدرسي عرف باسم نظام العرفاء ، وكان هذا النظام يمكن المدرس الواحد من تعليم عدد كبير من التلاميذ يصل أحياناً إلى المئات ، وذلك بأقل النفقات ، وسبيل ذلك هو أن يشرح المدرس الدرس لجماعة من الطلبة الكبار النابهين في دراستهم ثم يعهد إلى كل منهم بالتدريس إلى فئة من التلاميذ الصغار ، غير أن هذا النظام الذي كان يتبعه هؤلاء كان أميل ما يكون إلى العسكرية الصارمة ، ولذلك كان يجري كل شيء بنظام وترتيب . ولكن تكيف كل واحد من هؤلاء العرفاء مع الفئة التي يشرف عليها ومع المدرسة بوجه عام كان تكيفاً جامداً ، وكان نجاح هذه المؤسسة ونشاطها يتوقفان على هذا التكيف الجامد وذلك النظام الصارم . ولذلك كان محروماً على العرفاء وضع أسئلة بسيطة سهلة أو القيام بإجراء تجارب عملية أو اقتراح محسنات مجدية . وما زلنا نلمح ظلال هذه الفلسفة منعكسة على التربية الحاضرة كما نجدتها في إلحاح المسئولين والمهيمنين على المدرسين باتباع طريقة ثابتة معينة في التدريس لا يجيدون عنها . وليس هؤلاء المدرسين أن يناقشوا السبب وعليهم دائماً أن يطيعوا طاعة عمياء .

والآن فلنقارن هذا بالتكيف المطلوب في مدرسة حديثة من الطراز الأول حيث يهتدى المدرسون بفلسفة التربية وبحقائق علم النفس ، ودراسة الموضوع المراد تلقيه دراسة شافية ، ويسترشدون بكل ذلك إلى أفضل طرق التدريس

واختيار المناهج الملائمة للطلاب ، كما أن إدراك المبادئ التربوية وفهم النظم المدرسية يمكن هؤلاء المدرسين من وضع اقتراحات مجدية في تسيير دفة المؤسسة المدرسية ، ويمكنهم من خدمة الأوامر الإدارية في المدرسة خدمة حكيمة بعيدة عن ذلك الامتثال الأعمى البغيض . وهكذا نرى أن أمثال هؤلاء المدرسين يتكيفون مع ما تتطلبه مهنتهم تكيفاً نامياً مستمراً . ولهذا فإن عقيدتنا عن المدرس المثالي تتضمن فكرة عن التكيف المرن المبتدع التقدمي لا التكيف الجامد المحدود .

ويمكننا أن نمضي في سرد أمثلة عديدة ، ولكن لا داعي إلى ذلك مادام في متناول القارئ أن يعثر على الكثير من الأمثلة بمفرده . وليس المواطن الصالح الذي يمثل الأوامر القانونية امتثالاً سلبياً ، بل هو ذلك الذي يشترك في الحياة المدنية سواء أكانت محلية أم قومية مبدياً اقتراحاته سواء أكانت تلك الاقتراحات مما يؤيده أو يعارضه . والأم الصالحة هي التي تهتدي إلى مطالب أبنائها ، وتعمل على تحقيقها لا تلك التي تجرى وراء العادة ، والتقاليد .

وقيمة التربية تكمن في خلق أفراد يعالجون المؤسسات الاجتماعية بالابتداع والابتكار ، رائدهم في ذلك الذكاء والعزم على التعليم المثمر المستمر ، وهذه صفات يجب أن تغرسها المدرسة في نفوس التلاميذ ، كما يجب أن تكون كل أعمالها موجهة إلى تحقيق هذه الأهداف ؛ لأن التربية يجب ألا تمد الفرد بطريقة العمل الروتيني بل بطريقة العمل الابتكاري .

(ح) لماذا نحتاج إلى تكيف اجتماعي يتصف بالمرونة والابتكار والتقدم ؟

لعل القارئ الآن يميل إلى الأخذ بالرأى القائل بأن تكيف الفرد مع المجتمع الذي يتصف بالمرونة والابتكار هو في حقيقة الأمر أفضل من ذلك التكيف الجامد الذي لا يخضع للتغيير . ولكن هب أن أحد الهنود الأذكياء لا يؤمن بهذا القول ، ذكر لك أن رقى الإنسانية يتوقف على وجود نظام الطبقات الصارم الذي يفرض على كل فرد أن يعيش حياة محدودة تلائم بيئته ، كما نقرر

منهاج حياته، ومستقبله منذ ولادته. أو هب أنك تناقش بعض الأمريكيين الذين يعتقدون بأفضلية نظام الطبقات ، وينادون بضرورة تربية السواد الأعظم من الناس تربية تخلق منهم طبقة تشبه طبقة العبيد تخضع لطبقة الأشراف . هب أن هذه الحجج والآراء أدليت إليك فكيف تدافع عن معتقداتك ؟ والإجابة تتضمن إشارة إلى نقطتين مهمتين جديرتين بالذكر :

أولاً : إن التكيف المرن الذى ينحو نحو الابتكار والتقدم أفضل بكثير من أى تكيف جامد ؛ لأنه يكفل للجماعة تحقيق هدفها الرئيسى فى يسر وسهولة ، وأعنى به تحقيق خدمة أفرادها ، وتقويتهم . وكما أن الزمرة من الذئاب تستطيع مجتمعة أن تدفع عن نفسها غائلة طغيان الكلاب ، ولا يمكنها ذلك إذا انفرط عقدها . فكذلك المجتمع البشرى باجتماعه مكن الفرد الضعيف من أن يصير الغالب المسيطر فى الحياة . والملاحظ أنه كلما ازدادت وكبرت الجماعات كانت الميزة البيولوجية التى تجنّبها أعظم ، وأكبر . وتتحقق الوظيفة السامية للمجتمع عامة ، وللجماعات المختلفة خاصة حين يكفل للإنسان نمط معين من الحياة ..

ولكن هب أننا نبحث حالة تلك الجماعة البشرية التى تعمل فى مصنع من المصانع من عامل إلى رئيس ، فإننا نرى أنه لو ترك كل فرد يباشر عمله بلا تأثير فى الأشياء المرتبطة به لحصلنا على نوع معين من المهارة ، ولكن لوشجعنا كل عامل على التفكير ، والنقد ، والابتكار فسنجنى بلا شك من وراء ذلك فائدة جليلة ؛ لأن هذا وإن كان يجعل إدارة المؤسسة أمراً صعباً ؛ إلا أنه يجعل نتائجها أجدى وأنفع ، لأن العمل كله بوجه عام يستفيد فائدة عظمى من مساهمة الجميع فى رقيه ، ودأبهم على تقدمه ، وبذلك لا نعتبر الفرد (يداً عاملة أو آلة صماء) وإنما نعده إنساناً حقيقياً ، ومصدراً للقدرات التى تعمل على رقى المجتمع .

هذه هى أعظم محاسن التكيف المتصف بالمرونة ، والابتكار والذى يمكن الجماعة من استغلال قوى أفرادها استغلالاً كاملاً نافعاً ، ولكن نظام التربية وطرق التدريس - ثان

الطبقات الجاهل الذي يحد الفرد في محيط لا يتعداه إنما هو نظام بسيط تسهل فيه الحياة ، ولعل هذا هو السبب في تفضيل الكثيرين له ، إلا أنه كنظام لا يتفق ومبادئ الديمقراطية التي تفسح لكل فرد صدرها في أن يرتقي بقدراته ، ومواهبه حتى يصل إلى أرقى المناصب في الدولة ، فعصا « المارشالية » في يد كل جندي كما أن « البيت الأبيض » يمكن أن يصل إليه المواطن الأمريكي النابه ، ولعل أحسن مثال عرفه العالم عن المجتمع الذي يستفيد من المساهمة الفعالة لكل فرد تظله سماؤه . هو مجتمع العلماء الباحثين ؛ فكل عالم يبحث ويعمل حراً مبتكراً مستعيناً بالاكتشافات الماضية ، والحاضرة لجماعته ، كما أن النتائج التي يصل إليها سرعان ما تصبح في متناول يد البحاث من زملائه .

ثانياً : والاعتراض الثاني الذي يذكر ضد الجمود الاجتماعي هو :

أن الفرد تسنح له أطيّب الفرص للحياة الكاملة في المجتمع الذي يتيح له أقصى حرية لاكتشاف أساليب جديدة في العمل والحياة والتفكير ، والشعور ، ولذلك فإن هذا يدفع الفرد إلى العمل على تغيير وتحسين المؤسسات الاجتماعية الموجودة ، وإذن فالجمود الاجتماعي معناه الحد من حرية الفرد ، ونحن نذكر أن الفلاح أو الصانع يحتاج إلى تربية أولية فقط ، وأن أي تربية عميقة بالنسبة له لا غناء فيها ، ولا طائل نحتها فإننا بذلك نفترض فرضاً خطيراً يؤدي بهذا الفرد إلى أن يظل دائماً في حرفته كفلاح أو كعامل ، وعلى هذا يصبح كونه فرداً ينتمي إلى طبقة معينة أهم بكثير من كونه بشراً ينتمي إلى الإنسانية ، ولكن يجب عليه أن يندمج خارج محيط عمله بشغف في الحياة العائلية أو الأمور الصحية أو الشؤون الدينية والمدنية التي هي على صلات وثيقة بالحياة الإنسانية كما يجب أن يكون لعنصر الذكاء ، والبصيرة علاقة قوية بالعمل الذي يقوم به الإنسان حتى لا يصير مجرد « روتين » يومي يحد من الأفق العقلي لديه ، وهذا هو المذهب الذي أوجد إحدى الحركات التربوية العظيمة وأعنى بها النظام المتبع « بالدانمارك » المعروف باسم « المدرسة العالية للقرويين » The Rural Folk High School System of Denmark وهي مؤسسة تمد الفلاحين ، والمشتغلين

بالفلاحة ، والزراعة بثقافة واسعة تبدو لدى أنصار مبدأ نظام الطبقات في غاية السقم ، وإن المتبعين لهذه الحركة في « الدانيارك » وخارجها يجمعون على أن سر الانتعاش الزراعي لهذا الإقليم يكمن في هذه الحركة ، ويرجع إليها . ولقد ذكر فلاح كهل بهذه المناسبة أن المدرسة العالية للقرويين تساعد الفلاح على أن يشعر بأنه إنسان حقيقي .

وجوهر هذين المبدأين يتلخص في أنه يجعلنا نعتقد أن المجتمع ذا التأثير الفعال هو الذي يكون فيه انسجام متبادل بين الفرد ، والجماعة ، والذي يساهم فيه كل فرد بأقصى قواه من أجل الصالح العام الذي هو بدوره السند الأول للفرد ، ومنيع قواه . ويجدر بنا أن نقول : « إن فكرة وجود علاقة قوية حرة مبتكرة بين الفرد ، والمجتمع الذي يعيش فيه هي ما نسميه بالعقيدة الديمقراطية ، وقد عبر الزعيم الكبير « بركليس » عن هذه الفكرة تعبيراً بسيطاً منذ ألى عام مضت ، فقال : « نستطيع نحن سكان أثينا أن نقدر ، ونتذوق إن عاجزنا عن أن نبتكر ونتدع ، ونحن لا نرى في الأمور النظرية عقبة كأداء في سبيل العمل بل على التقيض من ذلك نراها أمراً ضرورياً تمهيدياً يسبق كل عمل صائب .. وأستطيع أن أذكر بليجاز أننا في مجموعة كمدينة عبارة عن أثر من آثار المدرسة الإغريقية ، ولكنى أشك كثيراً في أن العالم قد أنجب رجلاً كالأثيني يشعر وهو بمفرده أنه كفء لمعالجة ما يجابهه من المصاعب بما وهب من مزايا وشيم » .

(د) كيف يمدنا المجتمع بوسائل التكيف مع المؤسسات الاجتماعية ؟

من العيب أن نحاول الإبانة عن أهمية التكيف مع مؤسسات المجتمع بالإشارة البسيطة إلى ضرورة وجودها ، ولما كان الإنسان الفجج undeveloped لا يستطيع الاحتفاظ بعلاقة طيبة ابتكارية نزاعة إلى الحرية مع مجتمعه ، فلذلك وجبت تربيته ووجب أن تكفل له بعض الوسائل العقلية التي تحقق ذلك . والمجتمع هو الذي يمد الفرد بالوسائل يستخدمها في التكيف التام مع مؤسسات الجماعة . وقد استطاع المجتمع تحقيق ذلك بتوفير الوسائل الذهنية

التي تعمل التربية على جعلها في متناول الأفراد ، وقد ذكر الأستاذ « روس فيني » Ross Finney قائمة لهذه الوسائل ، نلخصها فيما يلي (١) :

أولاً : وسائل التخاطب (الاتصال بالغير) وتشمل التعابير الوجيهة ، والإشارات واللغة ، والكتابة والفنون الجميلة التي هي وسيلة للتعبير عن المشاهد والعواطف ، وكل الحيل الآلية ، والطرق الاجتماعية للتخاطب على مسافات ، إلى جانب تلك المؤسسات التي تحمل تراث ثقافتنا إلى الأجيال القادمة .

ثانياً : وسائل الصناعة ، ونعني بها « القدرة على أداء كل ضروب الإنتاج الاقتصادي ، ولا تقتصر على الحرف اليدوية والذهنية ، بل تشمل أيضاً - تطبيق الفنون والعلوم ، كما تشمل ضروب الصناعة المختلفة ، وبالإنجاز تشمل المهنة في أعم معانيها .

ثالثاً : وسائل التسلية الصحيحة . كالألعاب الرياضية سواء أكانت في الملاعب أم داخل جدران البيت ، أم في الحفلات الاجتماعية وكل ضروب اللهو التي يمكن أن يسمع عنها .

رابعاً : العلوم .

خامساً : الفنون الجميلة .

سادساً : العقائد التي يعتنقها السواد الأعظم من الناس ، وتسيطر على حياتهم وإن لم تكن قائمة على أسس منطقية معقولة . وهذه العقائد لها تأثير عظيم في رقي الإنسانية . ويمكن الاستدلال على ذلك بالفكرة القديمة التي تنادي بأن الأرض مركز الكون ، فقد كان لهذه الفكرة أثر خطير في قالب نظام الحياة في العصور الوسطى ، ومؤسساتها الاجتماعية ، إذ كانت أشبه ما تكون ببخار خفي يبدد سحب العقائد المظلمة ، ولقد كانت المعارضة ضد « كوبرنيكس ، وجاليليو » ناتجة عن استنتاج خاطئ بأن هذه النظرية الفلكية تهدد نظام المجتمع .

سابعاً : المثل العليا والحاجات السائدة ؛ فمثلاً نجد في أمريكا الآن اتجاهها

في التفكير يرسم لنا صورة اجتماعية مختلفة عن المجتمع الأوربي محورها الرغبات الهامة التي غرسها الأمريكان في أبناء الجيل الحاضر ، ورغبة كل مدني أمريكي في اقتناء سيارة . فهنا نجد عاملاً عقلياً سواء أكان رغبة أم فكرة يسيطر على أسلوب الحياة الاجتماعية .

ثامناً : مجموع ضخمة من المصطلحات المهمة الغامضة المكونة من التقاليد المرعية أو العادات المتبعة مثل : الاستئذان قبل الدخول ، أو نفع الحمالين أو خدم المنزل ببعض النقود . . إلخ . وكل ما اصطللحنا عليه من أنه يليق أو لا يليق بالرجل المهذب أن يفعله أو يتعد عنه .

هذه الوسائل التي ذكرها « فني Finney » والتي تساعدنا في تكوين المؤسسات الاجتماعية . وهي وسائل تربوية أكثر منها أهدافاً للتربية ، وحيث تكثر هذه الوسائل ، وتكون في متناول اليد فإن المؤسسات تتعدد وتصبح وفيرة ، ويكون تكيف الفرد تكيفاً فعالاً مبتكراً . وحيث يقل ويتضاءل عددها ينحط المستوى الاجتماعي . ونخبر . مثال لذلك هو أن نستعرض حالة العصور الوسطى بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية حين نعي « جريجوري » Gregory of Tours في عبارات تعوزها بلاغة الأسلوب وتبرز تدهور العلم ، إذ انعدمت موارد التفاهم ، وانحطت أسس الصناعة ، والتسلية ، وتلاشت الفنون الجميلة ، وأضحت العقائد مملوءة بالخرافات والأفكار العقيمة ، وأصبحت المطالب السائدة حقيرة ، وسيطرت على حياة الجماعة الاصطلاحات ، والعادات التي هي أشبه ما تكون بالأساليب البدائية . وماذا كانت النتيجة ؟ .

يمكن أن نعبّر عنها في إيجاز بأنها « أنيميا اجتماعية » Social anaemia فقدت الحياة الاجتماعية عناصر القوة ، وساد المنزل فنوع أو على الأقل استسلام إلى عيشة تهمسة في كوخ حقير من اللبن ، والقش ، وأصبحت الدولة خاملة عاطلة وكانت الكنيسة حينئذ تبدو وقد لحقها الضعف كما انتابت الحياة الصناعية والمؤسسات الزراعية الفقيرة الوهن ، والتأخير ، وبدت كما لو كانت سائرة إلى طريق الانحلال ، والزوال . وأجذبت الحياة العقلية مما أدى إلى

انحلال عام في المجتمع ، والثقافة .

إن العلاقة بين الناحية العقلية والاجتماعية وثيقة ، فقد وضع « باجلي » ذلك توضيحاً لا يأتيه الشك في كتابه Determinism in Education « الحتمية في التربية » وذلك أنه كلما ازدهرت الموارد العقلية وكثرت ، وأصبحت في متناول الجميع ؛ كان نشاط المؤسسات الاجتماعية أوفر ، وأكثر . وحياة الفرد أغنى وأكثر . ومن هنا كانت الصلة بين التربية والمجتمع وثيقة للغاية ، لأن هدف المؤسسات التربوية هو زيادة وتوزيع هذا المصدر العقلي ، فهي أشبه ببيت المال في حراسة نظم المجتمع . وأن المصارف ليست مستودعاً للسبائك ، ولكنها وسيلة لتدعيم الحياة الصناعية بالثقة في الأوساط التجارية ، وكذلك تؤدي المدارس رسالتها إذا لم تهدف إلى مجرد تلقين المعرفة وحفظ العلم لأن هيئة التدريس بها تعمل جاهدة بالإضافة إلى معرفة التراث العقلي على تعويد التلاميذ حب البحث ، والتنقيب . وتسهر على جعل هذه المواد ميسورة بما تقدمه من التفسيرات المختلفة ، والتبسيطات المتنوعة .

ولعل أهمية الرق العقلي للمجتمع يتضح بجلاء إذا استعرضنا هذين المثالين الحديثين !! — فنجد أعوام قليلة مضت ظهر في باريس بعد الحرب العظمى رجل في هيئة « السنغاليين » ، وتغلب بعد حياة مضطربة على عاصفة من الحوادث العنيفة التي لا يكاد يصدقها عقل ، فقد قهر بطل رفع الأثقال الفرنسي ، واستطاع أن يكتسب بسمعته من المال ما يحقق له العيش الرغد ، ولكنه كان يفتق عن سعة ولذلك مات فقيراً . وقد أشارت الصحف الفرنسية إليه على أنه إنسان مسكين برغم قوته ، وبعته بأنه متوحش استغل استغلالاً سيئاً في ذلك العالم الذي لم يستطع أن يفهمه . فهنا نجد مثالا لشخص قذف به في مجتمع مملوء بالغش والخداع من غير أن يتسلح بالأفكار التي تكفل له التكيف الموفق مع المؤسسات الاجتماعية المعقدة المختلفة فما حدث إنما هو عبارة عن انفجار مروع ثم انتهاء وخمول ؛ فقد مات ذلك الرجل ممزقاً أشد تمزيق بوساطة آلة أخفق في فهم كنه تركيبها ، وإدارتها ، وهنا يكمن شر إخفاقه لأنه

كانت تنقصه القوة العقلية التي يتغلب بها على المشاكل المعقدة في مختلف المؤسسات الاجتماعية . وهكذا فرض عليه المجتمع التكيف من غير أن يمدّه بالوسائل التي تجعل هذا التكيف أمراً موفقاً .

وثمة مثل آخر على النقيض من ذلك تجده في الرحالة المشهور « ستيفان سن » ، فهذا الرجل قد تعلم أن يجارى ، ويساير البيئة القطبية ، وما يحتمل أن يقابله فيها . ولقد نجح نجاحاً عظيماً ، فقد توغل إلى مسافات عظيمة فوق المحيط المتجمد برغم قلة ما يحمله من طعام، فقد كان يعيش كما يعيش سكان هذه المنطقة . وفي هذا المثل يمكننا أن نلمس مزايا الرجل المتمدنين الذي صبغه المجتمع بصبغة عقلية تساعده على التغلب على المشاكل ، فقد فاق « ستيفان سن » في ذلك سكان الجهات القطبية ، فهو قد تمكن بما وهب من مرونة وابتداع من أن يلائم نفسه مع ذلك المجتمع بنجاح . وقد قص علينا ذلك في أسلوب قصصي شائق يبين لنا كيف تغلب على مشاكل الحصول على الطعام ومشاكل حفظ الماء وبناء البيرت من الثلج ، وهذا أمر لا يستطيعه أى إنسان أبيض ، وكل ما كتبه في كتابه « الأراضي القطبية المحبوبة » يشهد بفضل التراث العقلي على المدنية ف « استيفانسن » في المناطق القطبية هو المثل الحى للفكرة التي نود أن نبرزها في هذه الصفحات عن الرجل الذي تنشده التربية الصادقة .

والذي نهدف إليه من وراء تلك الأمثلة السابقة إنما هو إبراز أهمية النواة العقلية في الحياة الاجتماعية ، وكلما زاد قدر هذه النواة لدى فرد من الأفراد تمكن من المساهمة الصحيحة في الحياة الاجتماعية وملاءمة نفسه لمؤسساتها والعكس صحيح . فجددير بنا إذن أن نبحث عن أمثل الطرق لا استغلال هذه القدرات العقلية بشكل يسهل ملاءمة الفرد ملاءمة اجتماعية .

ثانياً : العلاقة بين المدرسة والمجتمع

(١) روح الجماعة

يرث الإنسان فيما يرثه عن الجنس « الغريزة الاجتماعية » . فالإنسان حيوان اجتماعي بطبيعته ، وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إلى من يعتزلون المجتمع « المعتزلة Hermits » على أنهم أشخاص غير عاديين ، والسجن الانفرادي بالنسبة للعاديين من الأفراد ألن أنواع السجن، وربما كانت « الغريزة الاجتماعية » هي البقية الباقية من تلك النزعة التي طبعت بها الطبيعة البشرية عندما كان يتكاتف الإنسان مع أخيه الإنسان من أجل الدفاع عن النفس ، ومن أجل الصيد . ومهما كان من أمر أصل هذه الغريزة الاجتماعية فما لاشك فيه أنها عظيمة الأهمية من الناحية التربوية ولا سيما فيما يتعلق بالأمور الخاصة بالتعليم ، والتعلم .

وشعور الوحدة الذي يظهر على الطفل إذا عزل عن زملائه قد يكون شديد الخطورة ، ومثله في ذلك مثل الخوف . ولذلك وجب علينا ألا نلجأ إليه إلا في الحالات النادرة ، كما يجب علينا أيضاً أن نستخدمه بحذر . وقد لاحظت الدكتور « منتسوري » قوته ، ولذلك لم تلجأ إلى استخدامه إلا في حالات يبرز فيها سلوك الطفل الشاذ، فكانت تعزله عن الجماعة . والعزلة ضرب من ضروب العقاب يستخدمه المدرسون أحياناً ولكن له خطران واضحان .

أولاً : قد لا تكون هذه العزلة تامة ، ولذلك قد توحى للمذنب بفكرة الصدارة، فيظن نفسه مركزاً لجذب انتباه الغير He is the line light ولذلك جدير بالمدرس أن يبعد المذنب من الأطفال إلى مؤخرة الفصل بدلا من المقدمة .

ثانياً : قد يكون عزل الفرد عن الجماعة عزلاً تاماً، وفي هذه الحالة سوف يقاسى المذنب الشيء الكثير من الآلام . وهذا هو السبب الذي من أجله ينصح

المربون بالتخفيف عن عقاب العزلة بقدر الإمكان .
والشعور بالوحدة ، مثله كمثل الشعور بالخوف ، أو بالتقزز له أثر كابت على نشاط الطفل العقلي ، فقد يخلق منه شخصاً منطوياً على نفسه ، وقد تؤدي هذه الوحدة إلى أن يصبح فرداً خاملاً عديم الاكتراث بالغير . فالطفل المحب للعزلة المنطوي على نفسه طفل شاذ ، ومن أهم وظائف المدرس مساعدة الأطفال على النمو الطبيعي بحيث لا يفقدون نشوة الاجتماع بزملائهم . وهذا هو ما نرى إليه في الصفحات التالية « فنمو الروح الاجتماعية » ، وتشجيعها هو هدفنا الذي نود تحقيقه داخل جدران المدرسة . وعلينا قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع أن نستلمه بالحقيقة الآتية وهي أن النمو الاجتماعي لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع نمو الذاتية ، فالذاتية لا تتحقق إلا في جوامع اجتماعية . والذات لا تنتعش ولا ترعرع إلا إذا تمكنت من معرفة كيف تلائم نفسها مع زملائها ، وكيف تشعر بالسرور في صحبتهم ، وبالسعادة عندما تتفانى في خدمة المجتمع . وما لا شك فيه أن هناك اختلافاً عظيماً بين الأفراد في هذه الناحية الاجتماعية . ولكن العنصر الاجتماعي عنصر أساسي في خلق أي إنسان يتصف بالنواحي الإنسانية .

وقد سبق أن أبرزنا اختلاف الآراء في أهمية الفرد وأهمية الجماعة كما سبق أن أبرزنا أن الجماعة هي السرف وجود الفرد وفي تكوينه الروحي ، وأن الفرد بدون جماعة وهم أو خيال . وفي الوقت نفسه نعرف بأن الكثير من مميزات الأفراد هو السرف في تقدم الإنسان ورفق الجماعة ، كالتعاون ، والغيرية ، والحساسية الاجتماعية ، والحمالية ، وعلى هذا فنحن نرى أن أطفالنا لا يمكن أن يصبحوا آدميين بكل معنى الكلمة مالم يترعرعوا في وسط اجتماعي . فمجدير بنا إذن أن نربي أطفالنا في « مجتمع مدرسي » لا يكون صورة مصغرة للمجتمع الموبوء في العالم الخارجي ، بل خلاصة مثالية أو نموذجاً للعالم ، لا لعوالم الأشياء العادية فحسب ، بل خلاصة للإنسانية جميعها جسمها وروحها ، ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها . وفي ذلك يقول سير برسي نين : « إن مدارس الأمة ما هي إلا عنصر هام في

حياتها مهمتها الأساسية تركيز قوة الأمة الروحية وحمل تاريخها على البقاء وعلى الاستمرار ، تركز على مجدها الماضي وتؤمن على مستقبلها ، فعن طريق المدرسة تتمكن الأمة من معرفة المصادر الكامنة التي صدرت عنها جميع الحركات التي أثرت في حياتها ، ويمكنها أن تقاسم أحسن وأنبيل أبنائها أخلاقهم وآمالهم ، وأن ترى نفسها في مجال النقد دائماً وأن تعلى من شأن مثلها العليا . وعلى الجملة يجب أن تكون المدرسة ملخصاً للعالم المثالي أو نموذجاً حياً له - لا لعالم الأعمال العادية فحسب ، بل الإنسانية جمعياً جسماً وعقلاً ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . ولنتنقل الآن وقد عرفنا أهمية المدرسة من الوجهة الاجتماعية إلى بيان كيفية نمو الروح الاجتماعية فيها .

(ب) نمو الروح الاجتماعية في المدرسة

إن الروح الاجتماعية تختلف اختلافاً بيناً عن الغريزة الاجتماعية ؛ فهي صفة من الصفات البشرية ، تميز الإنسان عن غيره من الحيوانات الاجتماعية كالذئب أو الماشية ، أما الغريزة الاجتماعية بما يتبعها من سيطرة أو خضوع ، فهي المصدر الذي تنمو منه الروح الاجتماعية . وعندما يذهب الأطفال إلى المدرسة لأول مرة يحملون معهم بذور الروح الاجتماعية التي بذرت في البيئة المنزلية ، وهذا يدلنا على أن تلك الروح الاجتماعية تبدأ مبكرة في حياة الطفل فلا بد من تعهدها بالرعاية ، وهذا لا يتحقق إلا إذا نجحت وسائل التربية (البيت - المدرسة - المجتمع) في خلق الجو الاجتماعي الصالح الملائم لنمو تلك الروح .

ويمكن أن نميز بين أنواع ثلاثة للجو الاجتماعي داخل جدران المدرسة :

أولاً : الجو الاجتماعي الذي تخلقه شخصية قوية لمدرس ينزع إلى السيطرة على الغير ولا ينتج ذلك سوى الخضوع الظاهري لذلك المدرس والانصراف الباطني عنه .

ثانياً : الجو الاجتماعي الذي يخلقه مدرس ضعيف الشخصية ، وهذا

الجو من شأنه أن يسبب الفوضى والهباج في صفوف الأطفال . وهذا أمر لا يساعد على الاستفادة من روح الجماعة .

ثالثاً : الجو الاجتماعي الذي تخلقه شخصية حازمة تعالج الموقف معالجة حكيمة بعيدة عن السيطرة والخضوع ، وهذا الجو أقرب ما يكون إلى الجو العائلي : ففيه الكثير من الأخذ والعطاء بين المدرس وتلاميذه وبين التلاميذ بعضهم مع بعض ، وبعبارة أبسط : إن الروح الاجتماعية تتجلى في هذا الجو واضحة لدى كل فرد من الأفراد . وهذا الجو الاجتماعي هو أنسب الأجواء للتربية والتعليم .

هذا ، وقد أثبتت التجارب بأن الكفاية ، والسعادة البشرية – وانطلاق النشاط البشري ، والشخصية . كل هذه جميعاً ذات أصل واحد مشترك ، هذا المصدر هو الشعور التام بالتعاون في عمل من الأعمال لهدف مشترك ، ففيه يرتبط الفرد بأخيه ، ويرتبط الجميع بالمجتمع ، وهذه الروابط ليست بروابط العنف المفروضة على الفرد من الخارج (كما هو الحال في المثل الأول) ولا بروابط الضعف (كما هو الحال في المثل الثاني) ولكنها ناتجة عن شعور صادق في التعاون والألفة أو المحبة ، ذلك الشعور الذي يمكن أن نطلق عليه اسم بذور الديمقراطية الحية للتعاون كما في المثل الثالث .

هذا، وإذا كان الواقع قد أثبت نجاح العلاقات الإنسانية الطيبة والروح الاجتماعية الحسنة ، والتعاون لهدف مشترك – أثبت نجاح ذلك في ميادين الحياة الكبرى، فجدير بنا أن نتدبر مشكلة الحكم الداخلي للمدرسة من جديد، وبذلك نضمن مسايرة مدارسنا للروح الديمقراطية الصحيحة التي بها يزدهر المجتمع ولا تتعارض معه . وما لا شك فيه أنه قد أصبح من المعترف به أن المدرسة يجب أن تكون مجتمعاً لا مكاناً لتلقى العلوم فحسب . وسنحاول في الصفحات المقبلة بيان كيفية تحويل المدرسة إلى مجتمع وذلك لا يتحقق إلا بمراعاة ما يأتي :

أولاً : العلاقات الشخصية

إن العلاقات الشخصية بين الأفراد عنصر أساسي في خلق الجو الاجتماعي الصالح في المدرسة ، فليس الحكم الذاتي وحده أو ملاءمة الجدول المدرسي مختلف المواد كفيلا يثبت روح الجماعة الصالحة في المدرسة ما لم يشعر أفراد هذه المدرسة بشعور الرضا الشخصي ، والعلاقة الوظيفية الطيبة بين بعضهم وبعض . وما يؤسف له أن نعرف بأن الحالة السائدة في مدارسنا في الوقت الحاضر سيئة جداً ، وما علينا إلا أن نقوم بزيارة بعض هذه المدارس لنشاهد ذلك البؤس الشاسع في نوع العلاقات الشخصية القائمة بين أفرادها . فعظم هذه المدارس يخيم عليه شبح الخوف ، والسيطرة والخضوع لناظر مستبد ، بينما القليل منها تسوده روح التعاون ، والحب المتبادل بين الأفراد بعضهم مع بعض ، وذلك نتيجة لرتاسة متزنة وسلطة حازمة رشيدة .

وقد يتوهم البعض أنه بتأكيدنا أهمية عمل ناظر المدرسة أننا نقلل من قيمة الدور الذي يقوم به أعضاء هيئة التدريس ، ولكن في الواقع أننا لا نقصد ذلك ، فنحن من أنصار العقيدة التي ترفع من شأن المدرسين ، فقد يكون مدرس واحد من الأثر ما يشبه المعجزات في تحسين العلاقات الشخصية في المدرسة . وأنه إذا فقد الانسجام بين أعضاء هيئة التدريس عذمت الروح الاجتماعية انعداماً تاماً . وإذا فقد التلاؤم في الآراء ، والاتجاهات ، تلاشى الانسجام ، فالعامل الموجه إذن في تحسين المجتمع المدرسي هو بلا شك موقف ناظر المدرسة واتجاهه نحو أعضاء هيئة التدريس ونحو التلاميذ .

فالعلاقات الأساسية في مدرسة من المدارس يمكن تشبيهها بمثلث يصح لنا أن نطلق عليه اسم « مثلث القوى الشخصية » الذي يتكون من ناظر المدرسة ، وأعضاء هيئة التدريس ، والتلاميذ . ويمثل رأس هذا المثلث ناظر المدرسة زد على هذا أن هناك علاقات ثانوية أخرى فيما يأتي :

١ - العلاقة بين أعضاء هيئة التدريس أنفسهم .

٢ - العلاقة بين تلاميذ المدرسة كبارهم وصغارهم .

٣ - العلاقة بين الفصول وبين مدرسيها .

٤ - العلاقة بين التلاميذ والخدم . . إلخ .

وهذه العلاقات الثانوية تنمو نموًا طبيعيًا مرضياً إذا حسنت العلاقات الأساسية :

ولكى تصبح المدرسة مجتمعاً حقيقياً يجب مراعاة ما يأتي :

أولاً : أن يعتمد الذين يشغلون الوظائف الرئيسية في نفوذهم على خدماتهم الأساسية مدى ما يضطعون به من مسؤوليات نحو هذا المجتمع أكثر من اعتمادهم على سلطانهم المطلق ، وشعورهم بهذا السلطان :

ثانياً : يجب أن تكون أهداف الجماعة مرسومة وواضحة الفهم لجميع أفرادها كما يجب أن يتضح الدور الذي ينبغي أن يلعبه كل فرد في هذه الجماعة .

ثالثاً : يجب قبل البت في موضوع من الموضوعات أن تستشير كل فرد يتصل بهذه الموضوعات .

رابعاً : يجب أن تتاح لكل فرد في جماعة من الجماعات فرصة بذل قصارى جهده فيما يقوم به .

وربما يتوهم البعض أن هذه الأمور تعدو نطاق ما تتطلبه العلاقات الشخصية في المدرسة ، ولكن الواقع خلاف ذلك ، فالعلاقات الطيبة بين الأفراد تعتمد إلى حد كبير جداً على نمط حياة الجماعة . ومتى نجح المهيمون على شئون الجماعة في إيقاظ الوعي الاجتماعي سارت العلاقات الطيبة بين أفراد الجماعة وانتشر في ربوعها جو اجتماعي روحي من النوع الممتاز ، ومن شأن هذا أن يزيد في احترام الأفراد بعضهم لبعض وفي طاعتهم للأوامر لأن الجماعة في هذه الحالة تفهم أن السلطة ضرورية لسير دولاب العمل ، فلا ترغب في مقاومتها أو الثورة عليها .

ثانياً : التعاون

يعد الناس أنفسهم وغيرهم ليصبحوا كائنات حية مشبعة بالروح الاجتماعية عن طريق المشاركة ، والتعاون . على أن مدى تحقيق ذلك في المدرسة يحدد

المرحلة التي بلغتها هذه المدرسة في سلم التقدم الاجتماعي . وتصبح المدرسة مجتمعاً حقيقياً إذا شعر كل فرد من أفرادها بأنه يبذل مجهوداً شعورياً لتحقيق هدف مشترك . والمجتمع الحقيقي مجتمع حيوي ، وذلك بسبب بسيط هو أن كل فرد من أفراد هذا المجتمع مملوء بالروح الابتكارية ومشبع بالمثالية الخلقية ، وذلك لأنه يملك الكثير من الفرص الكافية للتعبير عن مواهبه العقلية ، والروحية . فالمبادئ الخلقية التي لا تخرج إلى حيز العمل هي في الواقع مبادئ في طريقها إلى الموت والفناء ، فالمشاركة إذن تعمل على تقدم الصحة الاجتماعية لأي جماعة كما أن لها أثراً واضحاً في معالجة الميول الضارة بالمجتمع . والآن نتساءل كيف يتسنى لنا أن ننظم حياة المدرسة بحيث يستفيد كل عضو فيها من خبرة هذه المشاركة ؟

علينا أولاً وقبل كل شيء أن نحدد الغرض من المدرسة بحيث يمكن أن يدركه كل قارئ ، ويوفر علينا الأستاذ « كارل مانهايم »^(١) مؤونة الإجابة عن هذه النقطة قائلاً : « إن تقسيم العمل ، وتوزيع الوظائف من غير أن يكون هناك هدف مشترك يهدف إليه الجميع ويؤدي إلى العمل الجزئي ويسلب العمل معناه ، ويجعله هيكلاً بلا روح أو حياة » وهذا ينطبق تمام الانطباق على المدرسة ، ومن سوء الحظ نرى أن كثيراً من مدارسنا تعوزها روح الجماعة؛ فالغرض من المدرسة هو مساعدة الفرد وإعداده ليصبح عضواً نافعاً للجماعة في المستقبل وهذا الهدف لا يتحقق إلا إذا ارتفعت المدرسة بمشاليها عن مجرد مكان تلقى فيه المعلومات على التلاميذ إلى مكان يعيش ويحيا فيه الأفراد ويساهمون في إدارته . وتسيير دفة العمل فيه .

هذا وأعظم وسيلة لتدريب التلاميذ على التعاون والمشاركة يتحقق بدون شك في مظاهر نشاط التلاميذ خارج جدران الفصل . تتحقق في المشاريع ، والتمثيليات ، وإلقاء الشعر ، والموسيقى ، والغناء ، والأشغال اليدوية ، والجمعيات الرياضية والكشافية . وهنا يجب أن نذكر التحذير الآتي : وهو أنه إذا كانت

طريقة تنفيذ هذا النوع من النشاط طريقة خاطئة فإن روح التعاون سوف لا تتحقق ؛ فقد تتحول بعض المجتمعات أو الأندية إلى مجرد عصابة ، كما قد يقدم طفل من الأطفال على عمل من الأعمال لأنه يود أن يشعر غيره بالحميل ؛ أو لأن هذا العمل يشعر بأهمية نفسه لا من أجل مشاركة الغير والتعاون معه . ولهذا يلزم ألا يصحب المشاركة إحساس بالزهو ، والترفع على الغير أو الكبر بشرط ألا نكتفى بالدافع الشخصي مجرداً عن الدافع الاجتماعي ، فالدافع الشخصي وحده دون الدافع الاجتماعي يصبح غير كاف . وأخيراً يمكننا أن نلخص ما قلناه مستعيرين لغة الدكتور « ث . م فلمنج » في كتاب علم النفس الاجتماعي للتربية عندما قالت : « قد أثبتت التجارب أن السلوك أصبح وظيفة لا من وظائف التلميذ فحسب ، بل منتج من نتاج المعاملة التي يلقاها من المدرس ، والمدرسة ، فالطرق الدكتاتورية والأوتوقراطية لا ينتج عنها إلا شخصيات تميل إلى الشغب ومقاتلة الضعيف . شخصيات يعوزها الشعور بالمسئولية ولا سيما عندما تزول عنها عوامل الكبت ، أما بث روح التعاون فينتج عنه انطلاق الطاقة ، والشعور بالسعادة » (١) .

ثالثاً : التكامل

إن المدرسة التي أصبحت مجتمعاً ، هي بلا شك كائن عضوي حي ، مثلها كمثل الجسم السليم تتوقف حيويته على كل جزء من أجزائه ، وعلى سلامة التلاؤم ، والارتباط بين هذه الأجزاء ، ووظيفة الزعيم الديمقراطي فيها الاستشارة ، والهداية ، والإرشاد الحكيم ، والسيطرة الحازمة ، وهذا من شأنه أن يزيد التعاون بين الأفراد القائمين بالعمل ، ويزيد الطاقات البشرية قوة ، وتتمركز هذه القوة في الزعيم الحكيم ، وعندما تسود تلك الروح الطيبة في مدرسة من المدارس ، فإن هذه المدرسة تفهم روح الزعامة بالمعنى السابق . وفي هذه الحالة سيفقد كل من السلطة والنظام خصائصهما السلبية ، وسيصبحان عاملين من عوامل الابتكار ، لأنهما صبغاً بالصبغة الاجتماعية . وإذا ما تحقق ذلك يصبح

المجتمع بوجه عام ، ويصبح كل فرد من أفرادها أكثر سعادة ، وأعظم إنتاجاً والوحدة الحيوية العضوية للمجتمع المدرسي مظهر من مظاهر الحياة النشطة في هذا المجتمع ؛ فالفصل يمهّد سبيل التعاون في المهام المشتركة بين أطفال السن الواحدة . هذا ويجب أن يشعر كل فرد من أفراد المجتمع بروح الطمأنينة الناتجة عن الانضواء تحت لواء جماعة صغيرة من الجماعات يسود بين أفرادها روح الصداقة القوية تحت زعامة مدرس يرجع إليه كل تلميذ في طلب النصيح والإرشاد . فالمجتمع الطيب هو ذلك المجتمع الذي يشعر كل عضو من أعضائه بأنه عضو مرغوب فيه ونافع له ، ومن هنا ننتقل بالقارئ إلى دراسة الشروط التي تساعد على التفاهم الاجتماعي ، وعلى تقوية روح الجماعة بالمدرسة .

(ح) الشروط التي تساعد على تقوية روح الجماعة في المدرسة :

هناك شروط عامة لا بد من توافرها إذا أردنا بث روح الجماعة في المدرسة . وربما نكون قد اسنا من معالجتنا السابقة لذلك بعض العوامل الهامة التي تساعد على خلق روح الجماعة ، فلم يبق علينا إذن لإدراة بعض الاعتبارات ، يجب أن تحظى بعناية هامة في المدرسة وهذه الاعتبارات هي :

- ١ - يجب استغلال جميع مظاهر المنهج المدرسي لنمو الروح الاجتماعية ، والتفاهم الصحيح .
- ٢ - يجب أن يكون أساس تنظيم المنهج قائماً على معالجة مشاكل ، وخبرات مناسبة للطفل .
- ٣ - يجب أن يتاح لكل فرد من أفراد الأسرة المدرسية الفرصة للمساهمة مساهمة فعلية في مهام الحياة الاجتماعية بها ^(١) .
- ٤ - إن الخبرات المدرسية يجب أن تنظم وتختار بحيث تتيح للطفل فرصة هضم الحقائق الاجتماعية .

(١) من عدة مقالات (قام المؤلف بترجمتها ونشرت بصحيفة التربية سنة ١٩٤٧) للأستاذ

ولنبداً الآن في النظر إلى كل عامل من تلك العوامل على حدة ، فلنبداً بالعامل الأول وهو استقلال جميع مظاهر المنهاج المدرسي لنمو الروح الاجتماعية والتفاهم الصحيح : ينادى البعض بأن تتبوأ المواد الاجتماعية المكانة المناسبة لها في هذا المضمار ؛ فيجب أن يكون لها القدر المعلى في خلق الروح الاجتماعية في المدرسة . ونحن مع تقديرنا لهذا الرأي إلا أننا نؤكد أهمية مساهمة جميع مواد الدراسة في خلق تلك الروح بدلا من الاقتصار على مادة من المواد، فالحياة المدرسية يجب أن تكون منظمة بشكل يتكاتف على تقوية روح الجماعة، فالمشاريع المدرسية التي تتطلب الاحتكاك بين المدرس ، والتلميذ ، وبين التلاميذ أنفسهم تتيح فرصاً لا حد لها لخلق روح الجماعة . ولا نأمل مطلقاً في زيادة مدلول روح الجماعة لدى أبنائنا ما لم يتمكن هؤلاء الأبناء كتلاميذ من فهم علاقاتهم الاجتماعية السائدة بينهم ، والتي تتجلى في المشاريع المدرسية السابقة وفي كثير من العلوم ، والفنون ، وغيرهما من المواد التي لها فضل عظيم في خلق روح الجماعة ، والحساسية الاجتماعية . أما المواد الاجتماعية فلا تمس إلا مظهراً واحداً من مظاهر الجماعة ، ففي العصر الحاضر مثلاً تعتمد الحياة « على العلوم » فن المستحيل فهمها دون الرجوع إلى المادة العلمية وإلى الطريقة العلمية لاستمداد العون منهما . وهذا ولقد لاحظ كبار رجال « العلوم » بأن هذه « المواد العلمية » لا يمكن فصلها مطلقاً عن ملاساتها الاجتماعية ، وأن العلم ، ومستقبله ، إنما هما وظيفة للمجتمع الذي يرعرعان فيه ، فالقيمة الاجتماعية للعلوم تبدو واضحة في خلق المدني المستنير ، وبالمثل تظهر قيمة الفن والأدب ، بالإضافة إلى ما لحما من أباد بيضاء في شرح الشروط الاجتماعية والتغلب على مشاكل الجماعة : فعن طريق الأدب والفن يمكن اكتساب بعد نظر وبصيرة قلما يمكن الحصول عليهما من أى ميدان آخر .

وثانياً : يجب أن يكون أساس تنظيم المنهج مشاكل ، وخبرات مناسبة للطفل ، فخبرات الأطفال تحددها دائماً بيئتهم المحلية (بيوتهم ، مدارسهم ، مجتمعاتهم) وتشمل هذه الخبرات جميع مظاهر الحياة من غذاء ، ومأوى ،

وعمليات صناعية ، وزراعية ، وتشبيد منازل ، وأعمال صحية ، وخدمات اجتماعية ، وما شاكل ذلك . فالطفل عنده خبرة بدائية بالمؤسسات الاجتماعية الأساسية كالبيت ، والكنيسة ، والحكومة ولا يمكنه أن يرى المؤسسة ، كؤسسة ، ولا الثقافة ، كثقافة ، وإن أهم شيء في نظره هو الطريقة التي تتأثر بها حياته ، وحياة أسرته وجميع معارفه ، وأصدقائه . فالمؤسسات الاجتماعية ليست في نظره أمورا معنوية منظمة ، ولكنها طرق مناسبة تساعد في تحقيق الحاجات الفردية ، والجمعية . وعلى ذلك يجب أن يكون محور التدريس للأطفال دائراً حول المشاكل المتعلقة بخبرتهم ، فهذه المشاكل إذا ما فهمت فهماً حقيقياً تساعد الطفل على أن يتقدم لفهم مشاكل العالم الأكبر ، وبذلك يمكنه المقارنة بين الثقافة التي يعيش فيها وبين الثقافات الأخرى المعاصرة ، كما يستفيد من دراسة ثقافات العصور السابقة ويمكن أن يستغلها في فهم الحاضر .

والثالث : يجب أن يتاح لكل فرد من أفراد أسرة المدرسة الفرصة للمساهمة مساهمة فعلية في مهام الحياة الاجتماعية .

لقد سبق أن بينا أن نمو الروح الاجتماعية ، لا يتعلق بالأمور الدراسية فحسب ، بل يجب أن نشجع الطفل على تكوين عقلية اجتماعية ، واتجاهات عقلية تدفع به إلى المساهمة في كثير من مظاهر نشاط الجماعة والحكومة والدولة ، إذا أردنا تحقيق مثل هذه الأهداف ، فلا بد أن يكون هناك توجيه عن طريقة مساهمة التلاميذ في مظاهر النشاط الاجتماعي . ومن المستحيل أن نلزم فرداً من الأفراد على المساهمة في مهام الحياة الاجتماعية بشكل من الأشكال من غير أن يكون هناك توجيه منظم .

وقديماً أهملت المدرسة تكوين اتجاهات عقلية تساهم في خلق الحساسية الاجتماعية ، وكانت المدرسة منظمة بشكل يساعد على تشجيع المنافسة ، وكان عامل السلطة المدرسية يلعب دوراً كبيراً في الحكومة المدرسية ، ولم يكن للروح الاجتماعية أي أثر في توجيه العلاقة بين المدرس والتلميذ ، وإذن فن الضروري أن نبدأ بعد هذا بإصلاح تلك الحالة ، وذلك بوضع بذور التعاون الاجتماعي بدلا من

المنافسة وأن نتيح للتلاميذ الفرصة للمساهمة في المشاريع الاجتماعية الهامة .
على أن فرص المساهمة في النشاط الاجتماعي يجب أن تمتد إلى ما بعد
الحياة المدرسية نفسها ، فتشمل المساهمة في مظاهر الحياة الاجتماعية
في المجتمع الأكبر .

وإباً : يجب أن تنظم الخبرات المدرسية ، وتختار بحيث تتيح للطفل
فرصة هضم الحقائق الاجتماعية .

من السهل جداً أن ينزول البرنامج المدرسي عن حياة المجتمع فلا يفهم
الأطفال شيئاً عن روح الجماعة ، فقد يلمون إلاماً سريعاً . ينتف عن نظريات
الجماعة في ثنايا دروسهم ولكن هذا قلما يساعدهم في تكوين روح اجتماعية
حقيقية . ولذلك كان من الضروري ، في أي برنامج دراسي أن يهتم بتربية
روح الجماعة والحساسية الاجتماعية ، وأن تدرس المؤسسات الاجتماعية دراسة
تتيح لدارسها فرصة تكوين فكرة صالحة عن الجماعة وأن نواجه المشاكل ،
والعيوب بدراسة النظريات للوقوف على طرق العلاج الناجمة ، والآن نساءل :
عن موقف الطفل في هذه الحالة وقيمة الزج به في مشاكل اجتماعية لا طاقة له
بها ، ألا يكون هذا سبباً في القضاء على روح الأمن عنده ، وهو في أشد الحاجة
إليها لتكوين شخصية متزنة في المستقبل ؟ ! هذه المشاكل وأمثالها تشغل بال
من يحتكون بالأطفال عندما يحاولون التوفيق بين خبراتهم وبين حقائق الحياة
المحيطة بهم - ومن المحقق أيضاً أن الخبرات المدرسية يجب أن تلعب دوراً
كبيراً في إشعار التلميذ بالأمن ، فيجب أن تحاول المدرسة أن تبعد عن الطفل
مظاهر القلق وعدم الطمأنينة التي خلقتها الحرب الماضية ، وكانت سبباً في
اضطراب الحياة في البيت وفي المجتمع .

فأخلاقية :

أن حل المشكلة بيد المدرس وحده ، فهو قادر على الحكم على مدى
نضج الطفل ، وبقدر نضجه يتمكن من أن يزج به في مشاكل اجتماعية
مناسبة لسنه ، ولخبرته وقدرته بحيث لا يفقده صمام الأمن والطمأنينة ، فالوعي

الاجتماعى يتدرج ويبدأ من بدايات بسيطة ، مثله ، فى ذلك مثل أى قدرة من قدرات الطفل ؛ فجدير بالمدرسين أن يكونوا على بصيرة فى إدراك مثل هذه الروح الاجتماعية ، كما يجب أن تكون لديهم القدرة على معرفة متى يجب أن نحى بعض الأطفال من التخطى فى دياجير مشاكل اجتماعية عويصة على مداركهم . وبالجملة يمكن أن نقول : إن فهم المشاكل الاجتماعية يساير النضج فى شخصية الطفل وفى نمو خبراته . وهذه حقيقة يجب ألا يجهلها كل من يحتك بالطفل .

المراجع

1. A.G. Hughes and E.H. Hughes : Learning and Teaching.
2. T.P. Nunn : Education, its Data and First Principles.
3. Sturt and Oakden : Modern Psychology and Education.
4. J.S. Ross : Groundwork of Educational Psychology.
5. T. Raymont : Modern Education.
6. C. Bloor : The Process of Learning.
7. W. Trotter : Instincts of the Herd in Peace and War.
8. M. McDougall : Social Psychology.
9. J. Adams : Modern Developments in Educational Practice.
10. J.H. Simpson : Sane Schooling.